

تربية النفس على العبادة 3

تكلّمنا في الأسابيع الماضية عن تربية النفس تربيةً عباديةً واعتبرنا تربية النفس من أهم القضايا التي ينبغي على المسلم أن يهتم بها في هذه الأيام. وقلنا أن تربية النفس ترتكز على أمرين:

1- تربية النفس في معاملتها مع الله من خلال استشعار عظمة الله ومراقبته ومن خلال تربية النفس على الورع وعلى التقلب بين الشكر والصبر. وهذا ما تحدثنا عنه في الأسابيع الماضية تفصيلاً.

اليومَ ننتقلُ بكم إلى المحورِ أو المرتكزِ الثاني الذي ينبغي على كلّ مسلمٍ أن يربي نفسه عليه وهو:

2- تربية النفس في معاملتها مع الخلق.

مطلوبٌ مني ومنك ومن كل مسلم أن يربي نفسه في تعاملها مع إخوانه في الله جل وعلا. لو نظرنا إلى حالنا وإلى واقعِ أمتنا لوجدنا أنفسنا بعيدةً كلّ البعد عن الأخلاق التي أمرنا الله عز وجل بالزامها والتعامل بها. فترى المسلم يتكبر على أخيه المسلم ويحتقره ويأكلُ حقه. وترى المسلم يغتابُ أخيه المسلم ويشتمه ويتناولُ على عرضه. لذلك كان لزاماً أيها الأحبة أن نضعَ حداً لأنفسنا وأن نقوم بإعادة تربيتها تربيةً صحيحةً سليمةً، تربيةً تنهضُ بمستوى الأمة الإسلامية، تربيةً نزكي بها نفوسنا ونرضي بها ربنا.

نعم أيها الأخوة: مطلوبٌ مني ومنك ومن كل مسلم أن يربي نفسه في تعامله مع إخوانه. وأذكر نفسي وإخواني بأهم الأسس والقواعد التي يجب أن نربي أنفسنا عليها:

والأساس الأول: تربية النفس على التواضع مع الخلق.

أول ما تربي نفسك عليه هو التواضع. أن تدلّ نفسك بين الناس. هل جربت أن تمشي بين الناس وتعتبر نفسك أدلهم وأحقّهم وأدناهم منزلة؟ يقول جل وعلا (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين > أدلة على إخوانهم في الله < أعزة على الكافرين) المائدة 54. بعض الناس تجده مع غير المسلمين (يهود ونصارى) متواضعٍ لئن هين ومع إخوانه شديدٍ غليظٍ يشتم ويحتقر ويسئ الأدب. فاتق الله بنفسك وربها على التواضع للمسلمين.

وتعالوا معي أيها الأخوة لنشاهد هذا الموقف من سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: هذا التابعي أبوه وجدّه صحابيّان وهو من أشرف التابعين في علمه وعبادته. هذا الرجل كان في منى، وأظن من حجّ منكم يعرف كيف يكون الناس في منى وخاصة عند رمي الجمرات، زحام شديد وكل واحد يدفع الثاني. هذا الرجل، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، كان يمشي في منى فإذا برجل يدفعه فالتفت إليه سالم، فقال له الرجل: إني لأظنك رجلٌ سوء. سبحان الله يدفعه ثم يشتمه! تخيل يا أخي أن هذا الموقف حدث معك. تمشي في الطريق فيدفعك رجل ثم تنظر إليه لعله يتأسف فلا يعتذر بل أخذ يشتمك، فكيف ترد عليه؟ لا شك أن كلّ واحد منا له طريقته الخاصة بالرد. فالبعض يدوس على رأسه أو يبصق في وجهه... إلى غير ذلك من الردود القبيحة. ولكن تعال معي لنرى سالم بن عبد الله وماذا قال له؟ قال: والله ما عرفني إلا أنت. (أدلة على المؤمنين) هكذا الرجال

المؤمنون قلوبهم متواضعة لینه. الواحد منهم يحتقر نفسه حتى قال بعضهم في تعريف التواضع (ألا ترى لنفسك حقاً أو فضلاً على أحد فتظن أن الناس كلهم خيرٌ منك).

فيا أخواني: يا من تحبون رسول الله ﷺ: يا من تعتقدون أن لا سعادة ولا عزة ولا طريق إلى الجنة إلا بتباع رسول الله ﷺ: عليكم بالتواضع فهو من هديه وسنته.

والأساس الثاني: أن تربي نفسك على أن تكون نفساً تقيّةً متسامحة. لا بد لهذه النفوس أن تكون طيبةً. ليس فيها غلٌّ ولا حقدٌ على أحد من المسلمين. فهل جربت يوماً من الأيام أن تنام وليس في قلبك على أحد من المسلمين غلٌّ؟ هل جربت يوماً من الأيام أن تنام وليس في قلبك على أحد من المسلمين حقدٌ؟. اسمع لهذا الحديث! يقول ﷺ (يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة) يقول الصحابة: فخرج رجلٌ، وهذا الرجلٌ غيرٌ معروف. فعلاه تحت إبطه ولحيته يقطر منها أثر الوضوء. فعجبنا من أمره وهو يمشي على الأرض وهو من أهل الجنة. ثم قال في اليوم الثاني: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة. فخرج نفس الرجل. وفي اليوم الثالث نفس الرجل. يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب فتبعته وطرقت عليه الباب فقلت: يا فلان إني قد لاحت أبي، أي صار بيني وبين أبي خصومة، وأقسمت ألا أرجع إليه ثلاثة أيام فإن شئت تضيفني. فقال: تفضل. يقول ابن عمر: جلست عنده ثلاثة أيام، فما رأيتُهُ كثيرَ عبادةٍ ولا كثيرَ صومٍ. فهناك من الصحابة من يقوم الليل ويصوم النهارَ أكثرَ منه. وعندما انتهى اليوم الثالث أخبرته الخبر فقلتُ يا فلان: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول عنك أنك من أهل الجنة فأخبرني عن نفسك! قال: يا ابن عمر! ليس الأمرُ إلا كما رأيتَ، أي ما عندي عبادة أكثر من هذه التي رأيتها. فذهب عبد الله ثم ناداه فقال: يا بن أخي: تعال! قال: فرجعت. فقال لي: تذكرت أمراً. قال: إنني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشاً ولا أحسدُ مسلماً على خيرٍ أتاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك. هذه التي أدخلتك الجنة. ثم قال: وهذه التي لا تطاق. صحابي جليل يقول وهي لا تطاق. فهذه منزلة عظيمة.

فانتبه يا أخي إلى هذا المقام. ولا تخدع نفسك فتقول: أنا لا أحمل في نفسي أبداً. فتش وفتش! فسوف تجد في نفسك على فلان غلاً وعلى فلان حقداً وعلى فلان حسداً وعلى فلان غشاً وعلى فلان كرهاً وعلى فلان إساءة ظن. فتش عن هذه الرذائل والأمراض! ونق نفسك منها! وأجعل صدرك نقياً سليماً محبباً لإخوانه! يقول الله جل وعلا (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) اسمع الدعاء! (ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا).

كان ﷺ جالساً في أحد الأيام مع الصحابة فقال: هل يستطيع أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ قالوا: من أبو ضمضم يا رسول الله؟ قال: هذا رجلٌ كان إذا أصبح يقول: اللهم إني قد وهبتُ نفسي وعرضي. فلا يَشْتُم من شَتْمه، ولا يظلم من ظلمه. كل يوم يقول: يا رب كل من تكلم فيَّ فقد حَلَلْتُهُ وتصدقت بعرضي على إخواني، بعض الناس تجده يتذكر موقف من أخيه قبل عشر سنوات وإلى اليوم ولم ينسه ولم يعفو عنه. فجرب يا أخي أن تكون مثل أبي ضمضم ليسلم صدرك وتدعو لإخوانك بالعفو (وليصفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يُعْفَرَ الله لكم والله غفور رحيم).

أسأل الله العظيم أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فيا فوز المستغفرين استغفروا الله.

أما المقام الثالث الذي يجب علينا أن نربي أنفسنا عليه في تعاملها مع الناس: مقام إحصانِ الظن بالناس. وهذا المقام قليلٌ من الناس من يقومُ به. فكثيرٌ منا عنده سوء الظن بإخوانه. فبعض الناس إذا سمع كلمةً من أخيه لا يتحملُ سماعها، بل تجده يحملها على محمل السوء، ويقول ما تكلم إلا وهو يقصدني، ما قال هذه الكلمات إلا وهو يردي كذا وكذا. فأسألك بالله يا من تسوء الظن بأخيك، هل كشفت عن قلبه؟ هل فتشت فيه؟ هل جئت وسألته؟ فاتق الله! وأحسن الظن بأخيك! واحمل ما تسمع من إخوانك على أحسن المحامل!. واسمعوا أيها الإخوة إلى سلفنا الصالح الذين سلمت صدورهم وقلوبهم لإخوانهم! يقول ابن معين: إنا لنطعن بأقوام، وابن معين هذا عالمٌ من علماء الجرح والتعديل القدامى، يعرف رواة الأحاديث فيقول هذا ثقة، هذا صادق، هذا كاذب، هذا فيه كذا وكذا... . يتكلم بهذا الكلام من باب المحافظة على حديث النبي ﷺ. وعلمه هذا واجب ولخدمة دين الإسلام، يقول: إنا لنطعن على أقوام لعلمهم حطوا رحالهم بالجنة. انظروا إلى ورع وإلى إحصانِ الظن في إخوانهم!.

واسمعوا أيها الإخوة إلى هذا المقام في العفو والصفح وإحصانِ الظن من خلال قصة الإمام أحمد مع المعتصم. الإمام أحمد جُلد جلدًا لو جُلد البعيرُ بمثله لمت. حتى كان بعضهم يجلدهُ فإذا تعب أناه آخر فيجلده حتى يسقط على الأرض. وهذا الجلد كان بأمرٍ من المعتصم خليفة المسلمين بذاك الزمان. أمر بجلده ظلماً. فالإمام أحمد لم يكن مخطئاً ولا ظالماً بل كان يحمي عقيدة المسلمين، عقيدة أهل السنة والجماعة. وعندما أُطلق سراحه جاءه أحد الأطباء لزيارته فلما نظر إلى ظهره قال له: يا إمام لقد مات الجلد، أي اللحم. ولا بد أن يُستأصلَ ونقطع اللحم وإلا استشرى في الجسدِ فتموتَ وتهلك. فاستلقى الإمام على بطنه وجاء الطبيب بالمشروط وليس عنده بنج ولا مخدر، وأخذ يقطعُ لحمه. فلما بدأ بالقطع، وضعَ الإمام يده على رأسه وقال: اللهم اغفر للمعتصم! اللهم اغفر للمعتصم! (وليغفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفرَ الله لكم والله غفورٌ رحيم) النور 22. بكى الإمام في ليلةٍ بكاءً شديداً. فقال له تلاميذه: بكيت الليلة بكاءً ليس ككل ليلة. ما الذي جرى؟ قال: مرّ عليّ في الدرس قولُ الله عز وجل (وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فتذكرت المعتصم، فقمّت الليلَ وبكيت في السجودِ ودعوتُ الله أن يحلّه.

فيا أيها الأخوة ويا أيتها الأخوات: هذه مقامات عظيمة وهذه النفس إذا لم تتربى على هذه المقامات ولم تدلِ لله جل وعلا وتدلِ لإخوانها، فو الله الذي لا إله إلا هو لن ينصرنا الله ولن ندق طعم الراحة والسعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة إلا إذا عملنا على تغيير أنفسنا وإلا إذا أعدنا تربيتهَا الصحيحة في تعاملها مع الله وفي تعاملها مع الخلق.

فربو أنفسكم على استشعار عظمة الله ومراقبته وربوها على الورع وعلى الصبر والشكر، هذا في تعاملها مع الله. وربو أنفسكم على التواضع مع الخلق والتسامح وإحصانِ الظن بالناس.

أسأل الله عز وجل أن يسمع قلوبنا كما أسمع آذاننا وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.